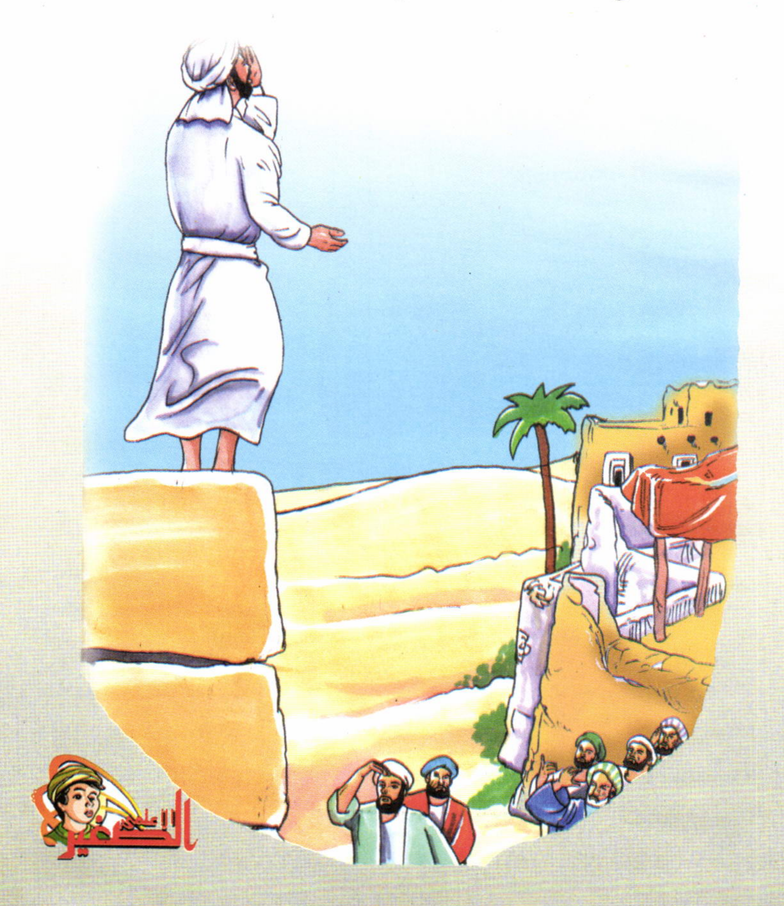
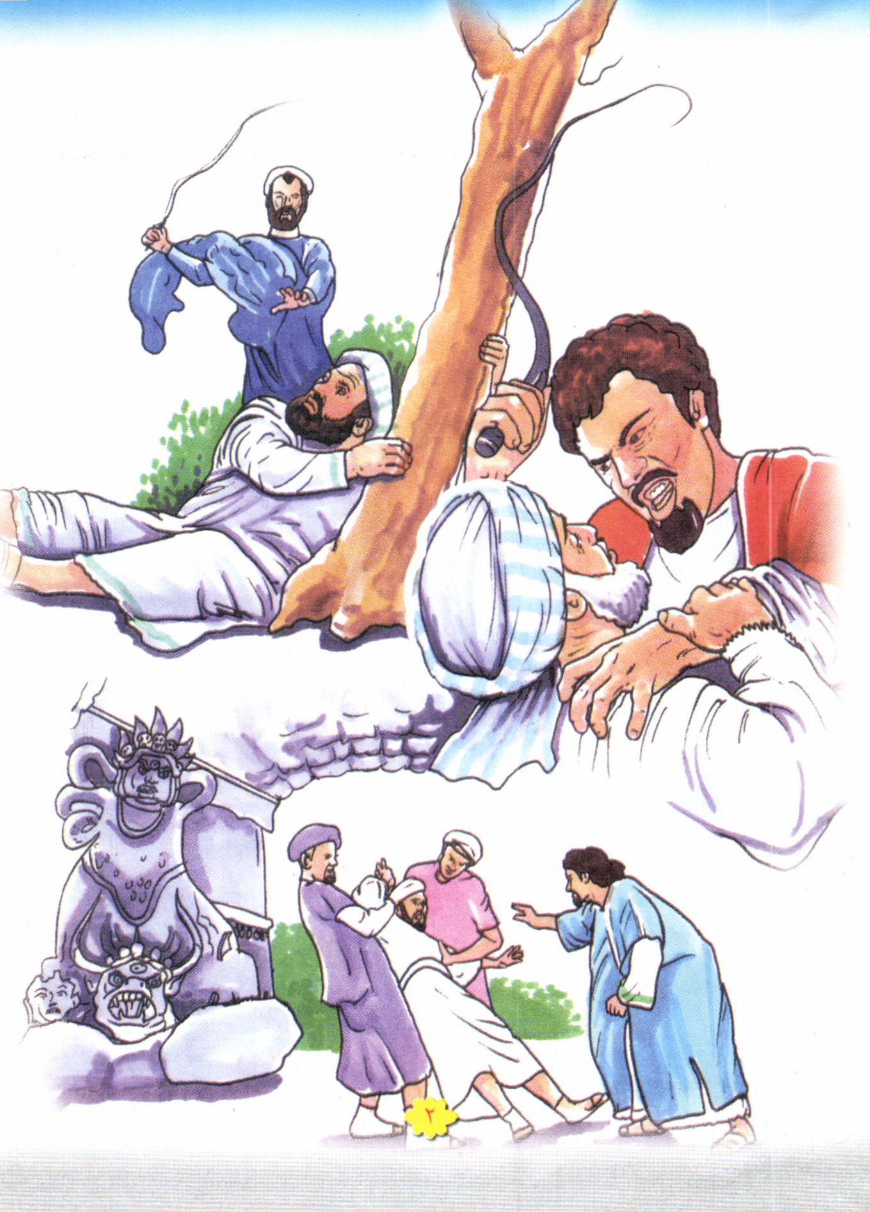
سلسلة الصحابة الأخيار

بلال بن رباح





لَمْ يَمْضِ سِوى وَقْتٍ يَسيرٍ على دَعْوَةِ النَبيِّ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإسلام.

في هذِهِ الأيّام اصطفى اللّهُ سُبحانَهُ فِئَةً مِنَ النّاسِ بِأنْ هَداها إلى الإسلامِ في أصْعَبِ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَراحِلِ الدَّعْوَةِ.

هذِهِ الفِئَةُ هِيَ فِئَةُ المُعَذَّبينَ في اللّهِ تعالى مِنَ المُسْتَضْعَفينَ الّذينَ آمَنوا باللّهِ تعالى تَحْتَ وَطْأَةِ تَهْديدِ المُشْرِكينَ وَتَنكيلِهِم،الَّذينَ رأَوا في دينِ النَّبيِّ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم خَطَراً عَظيماً يُهَدِّدُ جَبَروتَهُم وَطُغيانَهُم وَعُنْصِرِيَّتَهُم.

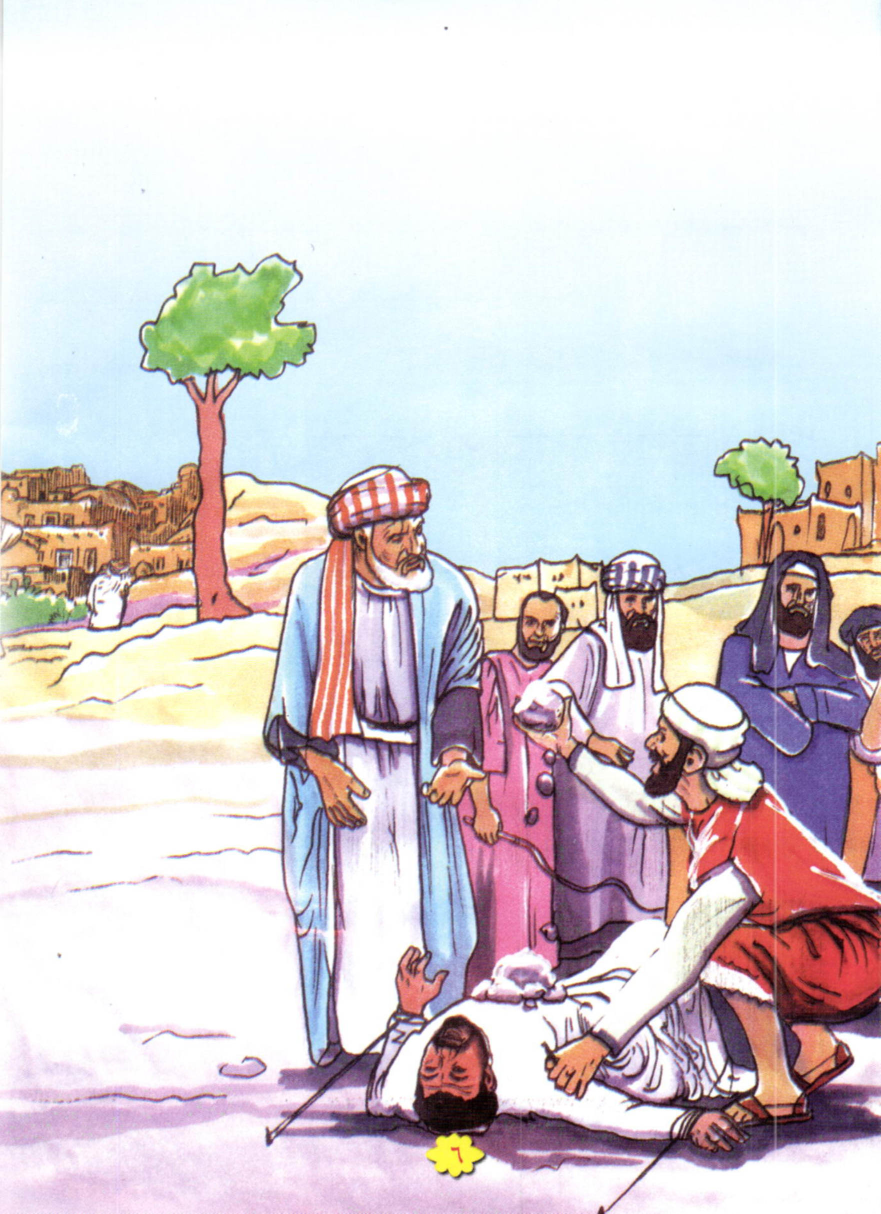
كَيفَ لا وَقَدْ اعْتادوا على أنْ يَسْتَكْبِروا على الخَلقِ بِعائِلاتِهِم وَأموالِهِم وَأبْنائِهِم، وَما يَملِكونَهُ مِنْ متاعِ الدُّنيا. فَجاءَ إلَيْهِمُ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم بِشَريعَةٍ تَرى أنَّ التَّفاضُلَ بَيْنَ النّاسِ لايَكونُ بِغَيْرِ التَّقوى؛ والأعَزُّ بَيْنَهُم هُوَ الأقْرَبُ إلى اللّهِ سُبحانَهُ، بِإيمانِهِ وَعَمَلِهِ.لِذا رأى المُسْتَكْبِرونَ في المُسْتَضْعَفينَ خَطَراً عَظيماً يُهَدِّدُ وُجودَهُم، وَ يُزَعْزِعُ شَرائِعَهُم وَسُنَنَهُم، وَما جَرَتْ عَلَيْهِ عاداتُهُم وَتَقاليدَهُم الجاهِلِيَّةُ المَوروثَةُ الَّتي وَجَدوا عَلَيْها آباءَهُم وَأجْدادَهُم.



هذا الأمْرُ دَفعَ المُشْرِكينَ إلى مُلاحَقَةِ كُلِّ مَنْ يَرَونَ في سُلوكِهِ وَتَصَرُّفاتِهِ مَيْلاً إلى دينِ مُحَمَّدٍ ﷺ، واضْطِهـادِهِ وَتَعْذيبِهِ حَتّى يَكْفُرَ وَيَعودَ إلى عِبادَةِ الأَصْنامِ وَالعَقيدَةِ الجاهِلِيَّةِ.

وَلَمّا كانَتْ فِئَةٌ منَ المُؤْمِنينَ ثابِتَةً على الهُدى الّذي اصطَفاهـا اللّهُ سُبحانَهُ لَهُ، لَجَـأَ المُشْرِكونَ إلى التَّعذيبِ وَالتَّنكيـلِ، وَكانَ أَكثَرُ المُؤْمنينَ نَصيباً منهُ أولئِكَ الّذينَ لا عَشيرَةَ لَهُـم تَحْميهِم، ولا أَهلَ قُرْبَهُم يَذودونَ عَنْهُم.

وَها هُوَ مَشْهَدٌ مِنْ مَشاهِدِ التَّعذيبِ يَدورُ قُربَ مَكَّـةَ المُكَرَّمَـةِ غَداةَ يَومٍ مِنْ أيّامِ الصَّيفِ الحارِقَـةِ، إذْ جَمَـعَ المُشْرِكونَ زُمرَةً مِنْ أولئِكَ المُؤْمِنيـنِ المُسْتَضْعَفيـنَ عِنْدَ الظَّهيـرَةِ، فَأَلْبَسوهُـم دروعاً مَصْنوعَةً مِنَ الحَديدِ، ثُمَّ خَرَجوا بِهِم إلى الفَلاةِ يَطوفونَ بِهِم وَهُمْ حُفاةٌ على الرِّمالِ المُتَجَمِّرَةِ مِنَ الرَّمضاءِ، تَحتَ أَشِعَّةِ شَمسِ الظَّهيرَةِ، لِيُرغِموهُم على التَّبَرُّؤِ مِنْ دينِ مُحَمَّدٍ ﷺ.



وَقَدْ أَذِنَ النَّبيُّ ﷺ إلى هؤلاءِ بِأَنْ يقولوا ما يُمكِنُ أَنْ يَدرَأَ عَنْهُمُ العَذابَ إن كانَتْ قُلوبُهُـم مُطْمَئِنَّةً بالإيمـانِ، وَبذلك استَطاعوا النَّجاةَ والخَلاصَ منْ بَيْنِ أيدي المُشْرِكينَ الّذينَ انعَدَمَتْ في قُلوبِهِمُ الرَّحْمَةُ وَالشَّفَقَةُ.

إلاّ أنَّ واحِداً مِنْ أولئِكَ المُعذَّبينَ وَهُوَ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ أَسْوَدُ اللَّونِ ظَلَّ يَسيرُ وَالجَلاّدونَ يَتْبَعونَهُ بِسِياطِهِـمْ، وَهُـوَ يُرَدِّدُ بِصَوتٍ واثِقٍ: "أَحَدٌ. أَحَدٌ!".

جُنَّ جُنونُ الكافِرينَ، وَراحوا يُضاعِفونَ عَلَيهِ العَذابُ، وَظَلَّ الرَّجُلُ يُرَدِّدُ الكَلِمَةَ حَتّى كادَ أَنْ يَلْفِظَ أنفاسَهُ وَتَزْهَقَ روحُهُ، بَلْ إنَّهُ أَضافَ يَقولُ: "أنا أَكْفُرُ باللاّتِ وَالعُزّى وَهُبَلٍ وَأساف وَنائِلَةَ وَ بُوانَةَ!". وَتِلكَ كانَتْ أَسْماءً لِبَعضِ أَصْنامِ المُشْرِكينَ الّتي كانوا يُقَدِّسونَها.

وَقَدْ مَرَّ على القَوم وَهُمْ يُعَذِّبونَ بِلالاً أَحَدُ المُؤْمِنينَ الأوائِلِ، وَهُوَ وَرَقَةُ بنُ نَوْفَلٍ، وَسَمِعَهُ وَهُوَ يُرَدِّدُ مُتَحَدِّياً المُشْرِكيـنَ الظّالِمينَ بِقَوْلِهِ: "أَحَدٌ. أَحَدٌ". فقالَ وَرَقَةُ: "يابِلالُ، أَحَدٌ أَحَدٌ، واللّهِ لَئِنْ مِتَّ على هذا لأَتَّخِذَنَّ قَبْرَكَ حناناً". (يَعني: أَتبَرَّكُ بِهِ وَأَتَقَرَّبُ بِزِيارَتِهِ إلى اللّهِ تعالى).



وَظَلَّ الجَلّادونَ يُعَذِّبونَ الرَّجُلَ حتّى تَعِبوا وَلَم يَتَفَوَّهْ بِشَيْءٍ مِمّا أرادوهُ أَنْ يَقولَ!

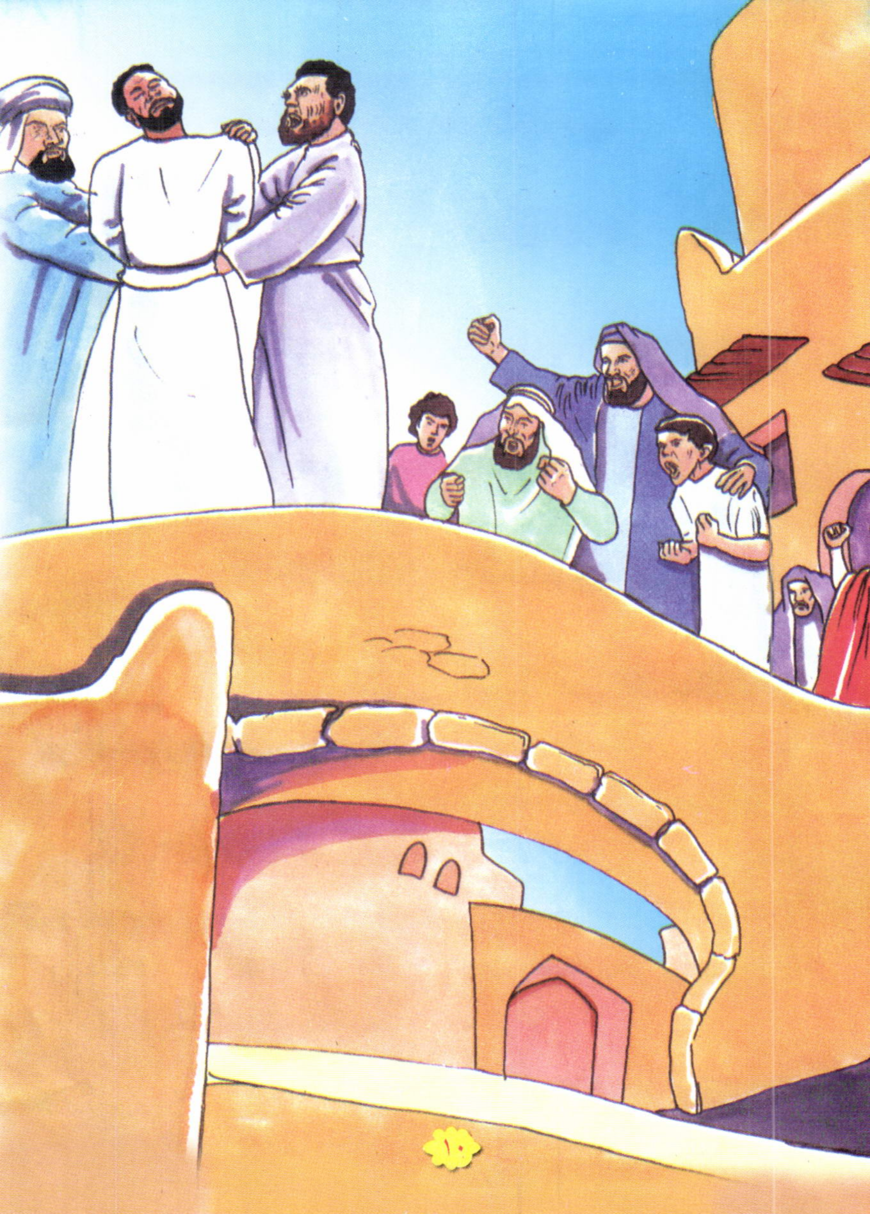
كانَ ذلكَ المُؤمِنُ المُعَذَّبُ في اللّهِ أبا عَبْدِ اللّهِ، بلالاً بنَ رَباح مُؤَذِّنَ رَسولِ اللّهِ ﷺ.

الّذي عاشَ في مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ في فَتْرَةِ بدايَةِ الدَّعوَةِ إلى دينِ مُحَمَّدٍ ﷺ. حينَ كانَ أَصْحابُ النَّبيِّ ﷺ يَتَّقونَ ظُلْمَ مُشْرِكي قُرَيْشٍ وَبَطْشَهُمْ بِأنْ يَعيشوا عِبادَتَهُم سِرّاً.

وَفي جَوفِ اللّيلِ كانوا يَجِدونَ أَفْضَلَ أوقاتِ الصَّلاةِ وَالعِبادَةِ، فَيَلجَأونَ إلى اللّهِ تعالى بالتَّضَرُّعِ وَالدُّعاءِ، ويَسْألونَهُ الهُدى وَالنَّصْرَ والنَّجاةَ.

وَها هُوَ بلالٌ،ذلكَ العَبدُ الحَبَشِيُّ الأَسْوَدُ الّذي كانَ مُلكاً لِواحِدٍ مِنْ مُشْرِكي قُرَيْشٍ، وَهُوَ عَبْدُ اللّهِ بنُ جِدْعانَ، يَخرُجُ في لَيلٍ داجٍ إلى الكَعْبَةِ حَيثُ نَصَبَ العَرَبُ أَصْنامَهُم. فالتَفَتَ حَوْلَهُ يَسْتَطْلِعُ، وَلَمّا لَمْ يَرَ أَحَداً نَ البَشَرِ أَقْبَلَ على الأصْنام يَبْصُقُ عَلَيها صَنَماً تِلْوَ الآخَرِ، وراحَ يَقولُ: "خابَ وَخَسِرَ مَنْ عَبَدَكُنَّ".

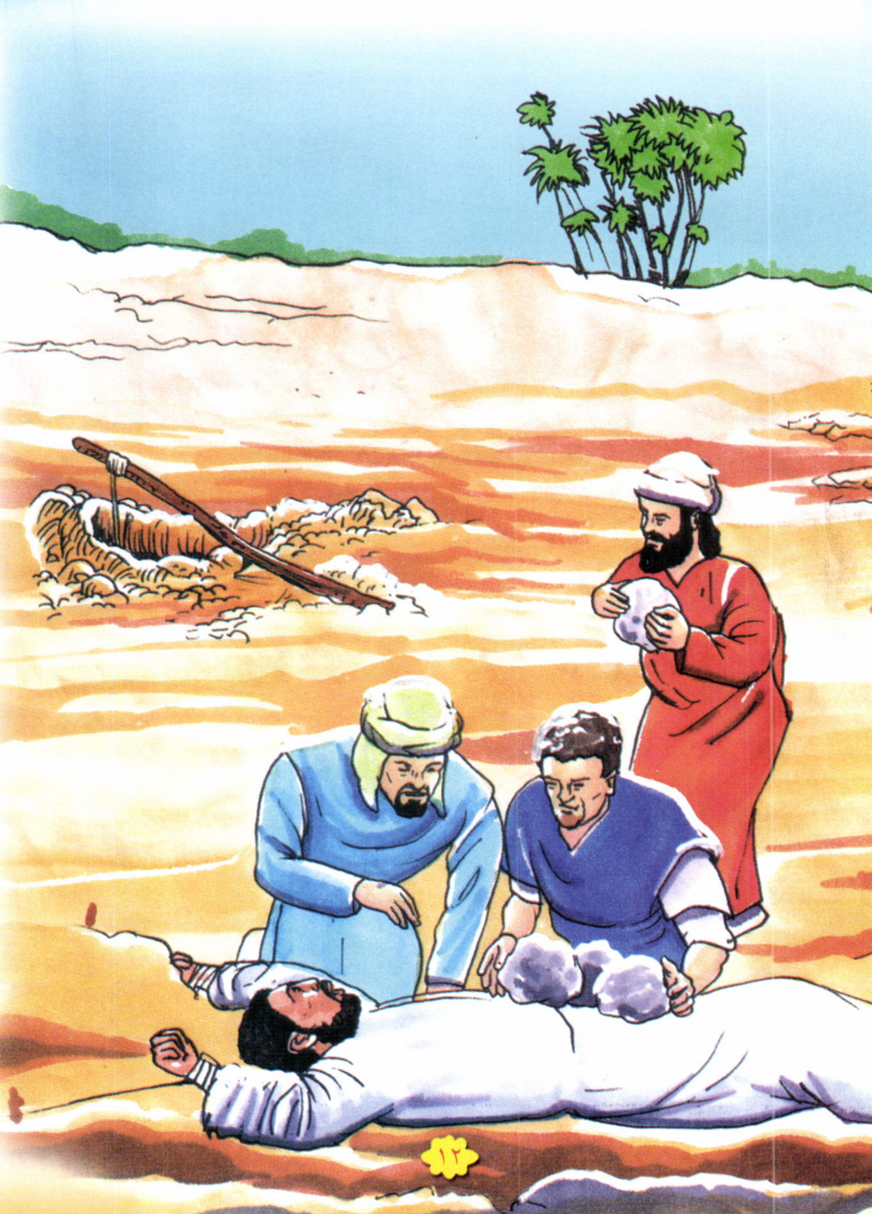
وَصادَفَ أَنْ رآهُ أَحَدُهُم، فَأَسْرَعَ يَحُثُّ الخُطا نَحوَ بُيوتِ القَبيلَةِ، وَيُخبِرُ المُشْرِكينَ بِما سَمِعَهُ وَرآهُ!



وَأَسْرَعَ الرِّجالُ يَجِدّونَ في المَسيرِ إلى الكَعْبَةِ، فَلَم يَعثُروا عَلَيْهِ، لأنَّهُ سَبَقَهُم إلى بَيْتِ سَيِّدِهِ عَبْدِ اللّهِ بن جَدْعانَ. وتَراكَضَ القَومُ يَسْعَونَ خَلْفَهُ وَعلى رَأْسِهِمْ أبو جَهلٍ وَأُمَيَّةُ بنُ الصَّلتِ يَطْرُقونَ بابَ السَّيِّدِ، وَحينَ خَرَجَ على أَصْواتِ طَرْقِهِمْ وَصِياحِهِم، بادَرَهُ أَحَدُهُم سائِلاً إيّاهُ:" صَبَوْتَ؟". (يَعني: هَلْ جُنِنْتَ؟).

فَقالَ لَهُم:" وَمِثْلي يُقالُ لَهُ هذا؟ فَعَلَيَّ نَحْرُ مائَةِ ناقَةٍ للاّتِ والعُزّى إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذلكَ!".

فَأَخْبَروهُ بِما فَعَلَهُ عَبْدُهُ الأسْوَدُ وَكانَ العَرَبُ في تِلكَ الأيّامِ يَعتَبِرونَ سَوادَ البَشَرَةِ نَقيصَةً وَعاراً يُرافِقُ المَرْءِ مُنذُ وِلادَتِهِ حتّى وَفاتِهِ فَدَعا عَبْدُ اللهِ بنُ جَدْعانَ ببِلالٍ إلَيهِ، وَسَلَّمَهُ إلَيْهِم قائِلاً لأبي جَهْلٍ ولأمَيَّةَ بنِ الصَّلتِ:"شَأْنُكُما فَهُوَلَكُما، إصْنَعا بِهِ ما أَحْبَبْتُما.".



وَكانَ ذلِكَ جُلَّ ما يَشاؤُهُ الرَّجُلانِ المُمتَلِئُ قَلْباهُما حِقداً وَقَسْوَةً.
فَخَرَجا ببِلالٍ إلى البَطْحاءِ، يَرْمِيانِ بِهِ على رَمْلِها الحارِقِ عارِيَ الظَّهْرِ، وَيَصيحانِ بِهِ مُهَدِّدَينِ مُتَوَعِّدَينِ: " أُكْفُرْ بِمُحَمَّدٍ. ". فَيَقولُ لَهُما بِإيمانٍ: " لا". ثُمَّ يُوَحِّدُ اللّهَ سُبحانَهُ!.
وَتَسْتَمِرُّ مَشاهِدُ التَّعذيبِ الّتي تَحَوَّلَتْ إلى مَدْرَسَةٍ تُعَلِّمُ المُسْلِمينَ في كُلِّ يَومٍ صَنْفاً مِنْ أَصْنافِ الصَّبرِ الّذي لَمْ يَعرِفْ لَهُ الزَّمانُ مثيلاً.
وَصارَ مَشْهَدُ بلالٍ مَأْلوفاً، فَلَطالَما رآهُ النّاسُ مَربوطاً بِحَبلٍ طويلٍ يَجُرُّهُ صِبيانُ المُشْرِكينَ، وَقَدْ تَيَبَّسَتْ شَفَتاهُ مِنَ العَطَشِ، وَالكُفّارُ يَقولونَ لَهُ:" قُلْ كَما نَقولُ!". فَيَقولُ لَهُم:" إنَّ لِساني لا يَنطِقُ بِهِ، وَلا يُحْسِنُهُ.".
ثُمَّ يَغتاظُ المُشْرِكونَ أَكْثَرَ، فَيَخْتَرِعونَ صَنْفاً آخَرَ مِنَ العَذابِ، إذْ يَضَعونَ على بَطْنِهِ حَجَراً ثَقيلاً، وَيقولونَ لَهُ:" دينُكَ اللاّتُ وَالعُزّى!". فَيَقولُ لَهُم:" ربّي اللّهُ!". ثُمَّ يَقولُ:" أَحَدٌ. أَحَدٌ!.".



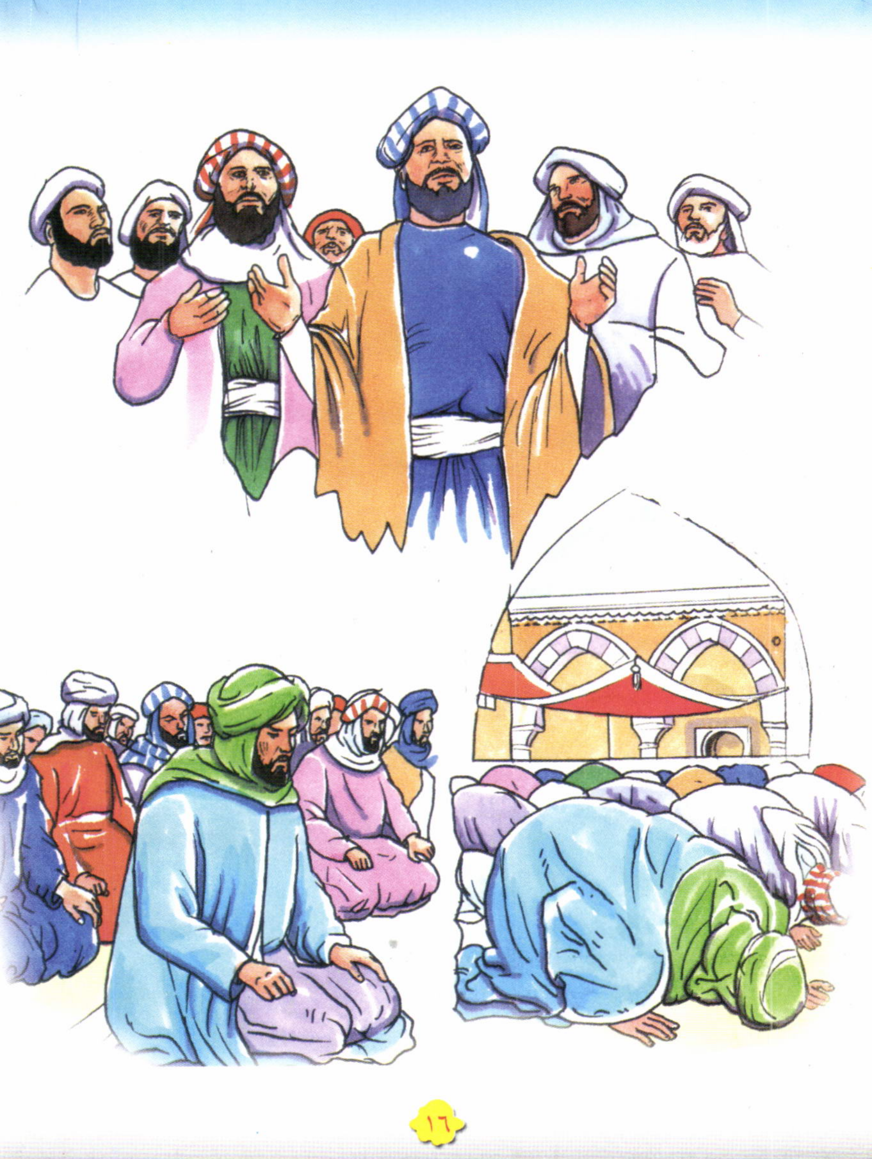
وَحينَ يتَمَيَّزونَ منَ الغَيظِ يَقولُ لَهُم بِتَحدٍّ وَثِقَةٍ: "لَوْ أَعْلَمُ كَلِمَةً هِيَ أَغْيَظُ لَكُمْ مِنْها لَقُلْتُها!!".

ذلِكَ هُوَ بِلالُ بنُ رَباحٍ صاحِبُ النَّبيِّ ﷺ الفَذُّ، بِشَجاعَتِهِ وَإيمانِهِ وَقَولِ الحَقِّ الّذي لَمْ تَأْخُذْهُ فيهِ لَومَةُ لائِمٍ في حَياتِهِ.

لَقَدْ أنارَ اللّهُ قَلبَ بِلالٍ وَهَداهُ فيمَنْ هدى مِنَ النّاسِ الّذينَ كانَ لَهُمُ الفَضْلُ في السَّبقِ إلى دينِ الإسلامِ، فَلَمْ يَرْضَ لِنَفسِهِ بِأَنْ يَكونَ أَقَلَّهُم جِهاداً، بَلْ إنَّهُ أرادَ لِنَفْسِهِ أَنْ يَكونَ واحِداً مِنْ حُماةِ الدّينِ وَواضِعي أُسُسِ دَوْلَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الأولى.

وَكانَ مِنْ كَرامَةِ بِلالٍ عِندَ اللّهِ سُبحانَهُ وَتعالى أن خَصَّهُ بِبَعضٍ مِنْ آياتِ القُرآنِ الكَريم، فَخَلَّدَ ذِكْرَهُ على مَرِّ الزَّمانِ، مَعَ فِئَةٍ مِنْ أَصْحابِ النَّبيِّ ﷺ بَيْنَهُم خُبابٌ وَعابِسٌ وَعَمّارٌ وَغَيْرُهُم مِنْ أَوائِلِ المُؤْمِنينَ الّذينَ جاهَدوا مَعَ نَبيِّ اللّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعُذِّبوا على أَيْدي المُشْرِكينَ.

مِنْ تِلكَ الآياتِ الكَريمَةِ قَوْلُهُ تعالى: ﴿والّذينَ هاجَروا في اللّهِ مِنْ بَعدِ ما ظُلِموا لَنُبَوِّئَنَّهُم في الدُّنيا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانوا يَعْلَمونَ﴾.

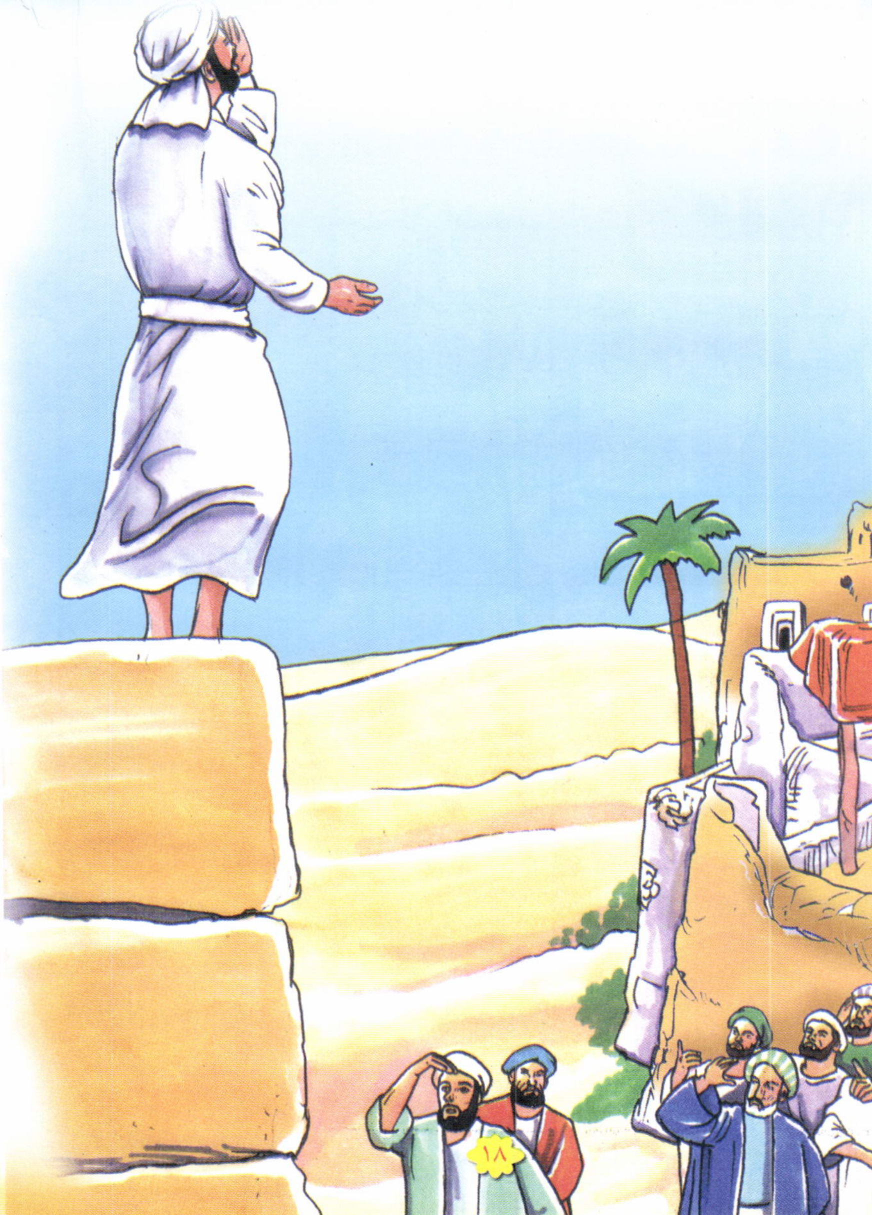


لَمْ يَكُنِ العَذابُ الّذي قاساهُ بِلالٌ في سَبيلِ اللّهِ تعـالى وَحْـدَهُ الشّاهِدَ على تَمَيُّزِهِ كَواحِدٍ مِنْ أَصْحابِ النَّبيِّ ﷺ، بَلْ إنَّ كَرامَةً أُخرى لا يُستَهانُ بِها جَعَلَتْهُ مِنْ رِجالِ التّاريخِ الإسلامِيِّ الأوائِلِ إنَّهُ أذانُ المُسلِمينَ، إذْ شاءَ لَهُ اللّهُ سُبحانَهُ أَنْ يَكونَ أوَّلَ صَوتٍ يَصْدَحُ على مَآذِنِ المُسْلِمينَ بِعِبارَةِ: اللّهُ أَكْبَرُ.

فَما قِصَّةُ هذا الأذانِ؟

لَقَدْ أَمَرَ اللّهُ سُبحانَهُ وَتَعالـى المُسلِمـينَ بالصَّلاةِ خَمْسَ مَرّاتٍ في كُلِّ يَومٍ. وَلِكُلِّ صَـلاةٍ وَقْتُهـا الّذي يَجِبُ على المُسْلِمِ أَنْ يُؤَدّيها فيهِ.

وَلَرُبَّما غَفِلَ المُسْلِمونَ عَنْ صَلَواتِهِتم، أَوْ نَسَوا، أَوْ لَتمْ يَنْتَبِهتوا إلى حُلولِ الوَقْتِ الواجِبِ أَداؤُها فيهِ. فَكانَ مِنْ رَحْمَتِهِ تَعالى لَهُمْ أنْ جَعَلَ للصَّلاةِ نِداءً خاصّاً يُنَبِّهُ المُسْلِمَ إلى حُلولِ وَقْتِ صَلاتِهِ وَيُذَكِّرُهُ بِها.



فَكـــانَ الأذانُ الّذي نَزَلَ بِهِ جُبْرائيـلُ عليه السلام على النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وَعَلَّمَهُ إيّاهُ. . .

فَأَرْسَلَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم الإمامَ عَلِيّاً عليه السلام يَدْعو بِلالاً الحَبشِيَّ، لِما عُرِفَ عَنْهُ مِنْ جَمالِ الصَّوتِ، وَحُسْنِ الإلقاءِ فَعَلَّمَهُ الأذانَ، وَسُرعانَ ما تَحَوَّلَ هذا النِّداءُ إلى شِعـارٍ لِلْمُسْلِميـنَ، يَهُزُّ مَشاعِرَهُم، وَيَمْلأُ قُلوبَهُمْ بِالفَخْرِ وَالعِزَّةِ بِنورِ الإسلامِ الّذي هَداهُم إلَيهِ اللّهُ سُبحانَهُ وَأخْرَجَهُم بِهِ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ.

وَلَمّا شاءَ اللّهُ سُبحانَهُ لِلنَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم أنْ يَدخُلَ مَكَّةَ المُكَرَّمَةَ فاتِحاً مَعَ جُيوشِ المُسْلِمينَ، كانَ أوَّلَ عَهْدٍ لَهُ فيها أنْ أمَرَ بِلالاً بالأذانِ فَوقَ ظَهْرِ الكَعْبَةِ وَقُرَيْشٌ في رُؤوسِ الجِبالِ، فَمِنَ المُشْرِكينَ مَنْ سَتَرَ وَجْهَهُ خَوفاً مِنْ أنْ يُقْتَلَ، وَمِنْهُمْ مَنْ طَلَبَ الأمانَ، وَمِنْهُم مَنْ مَنَّ اللّهُ تعالى عَلَيهِ بِأنْ هداهُ إلى الإسلام فَآمَنَ. وَحينَ وَصَلَ بِلالٌ إلى قَوْلِهِ:" أشْهَدُ أنَّ مَحَمَّداً رَسولُ اللّهِ". رَفَعَ صَوْتَهُ عالِياً حَتّى سَمِعَهُ أهْلُ مَكَّةَ، فَاغْتاظَ الكُفّارُ أشَدَّ الغَيْظِ، امّا المُسْلِمونَ فاستَبْشَروا وَقَرَّتْ عُيونُهُم بأنْ أعَزَّ اللّهُ دينَهُم، وَارتَفَعَ ذِكْرُ نَبِيِّهِـمْ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم.



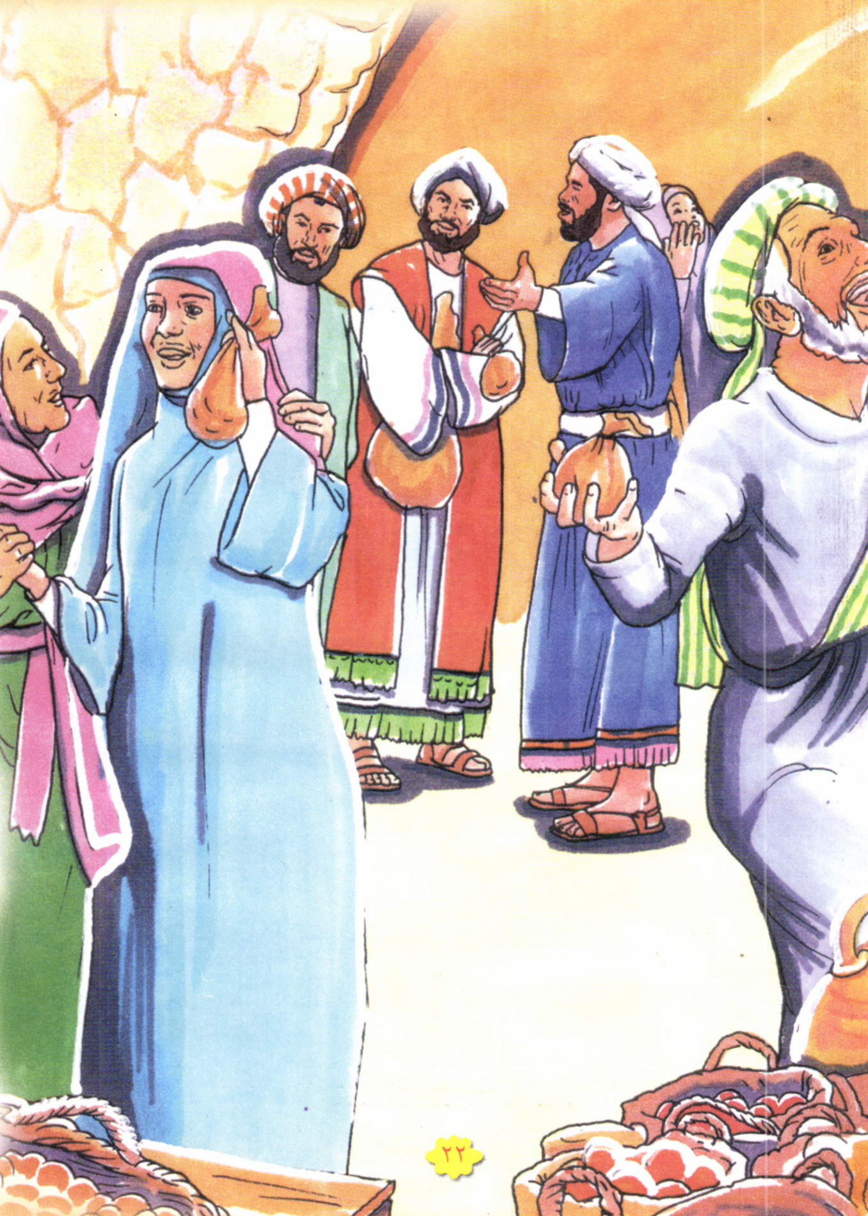
فَهَلِ اقْتَصَرَتْ مَهَمَّةُ بِلالٍ في زَمَنِ الدَّعْوَةِ الإسلامِيَّةِ على رَفعِ الأذانِ وَتَذكيرِ المُسْلِمينَ بِأَوقاتِ صَلَواتِهِم؟

لا، فَرَجُلٌ كَبِلالٍ يَتَحَمَّلُ ما تَحَمَّلَهُ مِنَ العَـذابِ في سَبيلِ دينِهِ لاشَكَّ في أَنَّ لَدَيْهِ مِنَ اليَقينِ وَالثِّقَةِ ما يُؤَهِّلُهُ لِحَمْلِ أَشَقِّ المَسؤولِيّاتِ بِقُوَّةٍ وَأَمانَةٍ.

فَلَمْ يَغْزُ النَّبيُّ ﷺ غَزْوَةً دونَ أَنْ يَكونَ بِلالٌ بَينَ المُقاتِلينَ يَطْلُبُ النَّصْرَ لِلْمُسْلِمينَ والشَّهادَةُ تُحيطُ بِهِ مِنْ كُلِّ جانِبٍ.

وَقَدْ اسْتَطاعَ بِلالٌ بِعَونِ اللّهِ تعالى أَنْ يَسْتَرِدَّ حَقَّهُ مِنْ ظالِميهِ في يَومِ بَدْرٍ، حينَ خَرَجَ المُشْرِكونَ لِقِتالِ النَّبِيِّ ﷺ، والتّقى وَجْهاً لِوَجْهٍ بِمَنْ فاقَ المُشْرِكينَ تَعذيباً لَهُ، يَوْمَ آمَنَ قَبْلَ أَنْ يُؤْمِنَ النّاسُ.

كانَ ذلكَ المُشْرِكُ هُوَ أُمَيَّةَ بنَ خَلَفٍ وَمَعَهُ ابنُهُ، فانْقَضَّ بِلالٌ عَلَيْهِمـا مَعَ المُسْـلِمينَ بالسُّيوفِ، وَكانَ يَصيحُ: " يا أَنْصارَ اللّهِ! رَأْسُ الكُفْرِ أُمَيَّةُ بْنُ خَلفٍ! لا نَجَوْتُ إِنْ نَجا." .



فَبلالٌ لَمْ يَنْتَقِمْ مِنْ أُمَيَّةَ لِما كانَ يُنْزِلُهُ بِهِ مِنْ عَذابٍ فيما مَضى بَلْ لأنَّهُ كافِرٌ حاقِدٌ على الإسلامِ وَالمُسْلِمينَ، وَفي قَتْلِهِ قَطْعٌ لِرَأسِ الكُفْرِ الّذي يَتَرَبَّصُ شَرّاً بِأُمَّةِ المُسْلِمينَ.

إنَّهُ الرَّجُلُ المُؤْمِنُ الّذي بَشَّرَهُ رَسولُ اللّهِ ﷺ بالجَنَّةِ كَما لَمْ يُبَشِّرْ أَحَداً مِنْ أصحابِهِ، وَقالَ فيهِ ما لَمْ يَقُلْهُ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ.

فَقَدْ أَشارَ النَّبيُّ ﷺ يوماً إلى بِلالٍ، وَقالَ:" . . وَيُبْعَثُ هذا يَومَ القِيامَةِ على ناقَةٍ مِنْ نوقِ الجَنَّةِ، يُنادي على ظَهْرِها بالأَذانِ. . . فَإذا سَمِعَتِ الأنبياءُ وَأُمَمُها(أَشْهَدُ أَنْ لا إله إلاّ اللّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسولُ اللّهِ) نَظَروا كُلُّهُم إلى بِلالٍ، فَقالوا : وَنَحْنُ نَشْهَدُ على ذلِكَ. . ".

أمّا أَخلاقُ بِلالٍ السّامِيَةُ، وَأمانَتُهُ الفَذَّةُ فَقَدْ أَهَّلَتْهُ لِيَنالَ عِنْدَ النَّبيِّ ﷺ ثِقَةً عَظيمَةً،تَجلَّتْ في اعتِمادِهِ عَلَيْهِ في تَبْليغِ أَوامِرِهِ وَنِداءاتِهِ إلى المُسْلِمينَ، كَما أَوْكَلَهُ بِمَهَمَّةٍ أُخْرى لا يَقومُ بِأَعْبائِها إلاّ أَصْحابُ الأمانَةِ العالِيَةِ. وَهِيَ القِيامُ بِدَورِ الخازِنِ وَالمُسْتَوْدَعِ لِلرَّسولِ الأَعظَمِ ﷺ، ثُمَّ القِيامُ بِتَوزيعِ المالِ وَسِواهُ بَيْنَ المُسْلِمينَ.

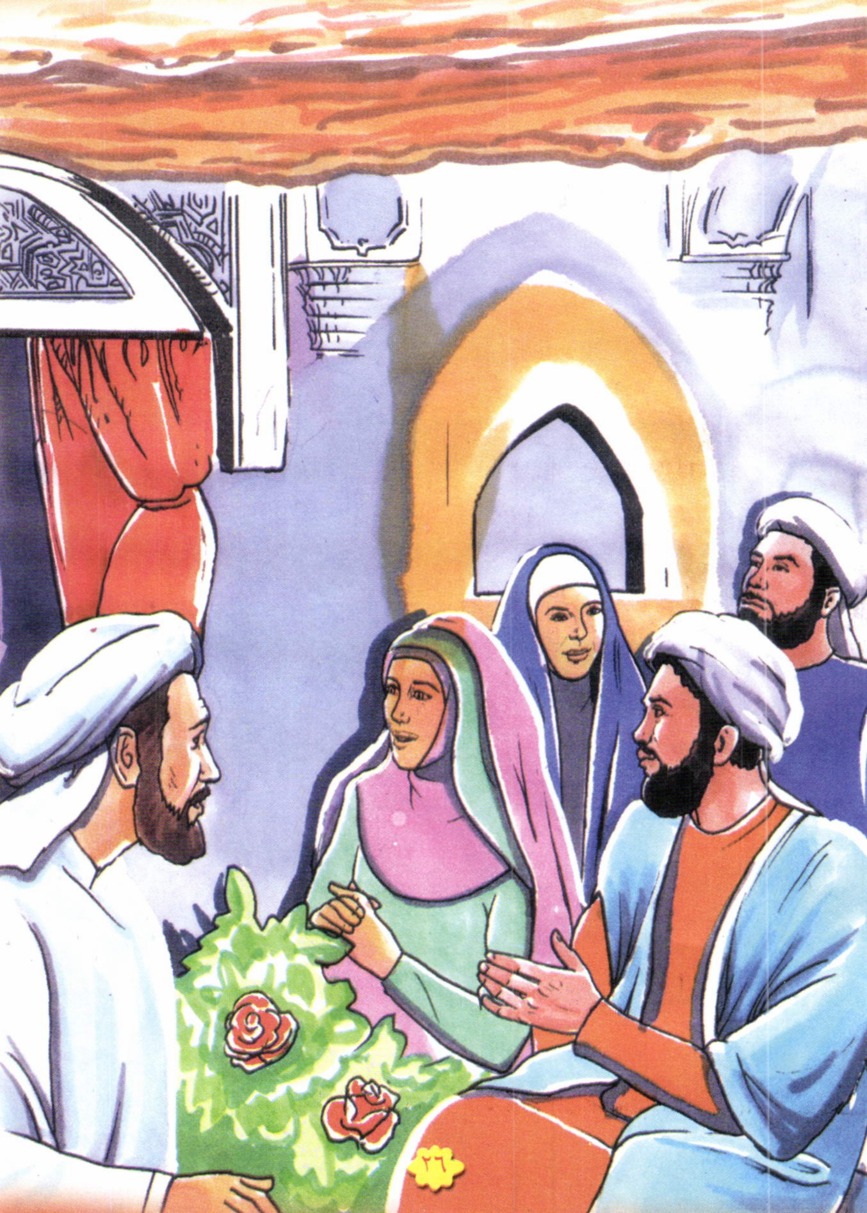


وَقَدْ تَحَدَّثَ(رض) حَوْلَ هذا الأمْرِ إلى رَجُلٍ سَألَهُ:" يا بِلالُ! حَدِّثْني كَيْفَ كانَتْ نَفَقَةُ رَسولِ اللّهِ ﷺ؟".

فَقالَ بِلالٌ:" ماكانَ لَهُ شَيْءٌ. كُنْتُ أنا الّذي إليَّ لَـهُ ذلكَ مُنْذُ بَعَثَهُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتّى تُوُفِّيَ، وَكانَ إذا أتاهُ الرَّجُـلُ المُسْلِمُ فَـرَآهُ عارِيـاً يَأمُـرُني فَأنْطَلِـقُ، فَأسْتَقْـرِضُ وَأشْتَـري البُرْدَةَ فَأكْسوهُ وَأُطْعِمُهُ".

وَلَمْ يَكُـنْ بِلالٌ مَعَ ذلِكَ سِـوى الفَقيـرِ الّذي لا يَملِكُ مِنْ حُطامِ الدُّنيا شَيْئاً، وَقَدْ قالَ لَهُ النَّبيُّ الأكْـرَمُ ﷺ يَوماً :" يا بِلالُ! مُتْ فَقيراً، ولا تَمُتْ غَنِيّاً".

وَظَلَّ بِلالٌ يَعْمَلُ بِهذا القَولِ حتّى آخِرِ يَومٍ في حَياتِهِ.فَلَـمْ يَأْخذْهُ الغُرورُ إلى البَعيدِ لِما لَهُ مِنْ مَكانَـةٍ عَـزيزَةٍ في نَفْـسِ النَّبيِّ ﷺ، وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ تَواضُعِ المُؤْمِنِ في أكْثَرِ مِنْ مُتاسَبَةٍ، مِنْها يَومَ أتَتْهُ جَماعَةٌ مِنَ النّاسِ يَذْكُرونَ فَضْلَهُ، وَما قَسَمَ اللّهُ لَهُ مِنَ الخَيْرِ، فَكانَ جَوابُهُ لَهُمْ:"إنَّما أنا حَبَشِيٌّ، كُنْتُ بِالأمْسِ عَبْداً!".



وَها هوَ يَقْدُمُ على قَوْمٍ مِنَ العَرَبِ مِنْ بَني لَيثٍ، وَمَعَهُ أخـوهُ، يَخْطُبانِ مِنْ بَناتِهِما، فَيَقولُ:" أنا بِلالٌ، وَهذا أخي، كُنّا ضـالّينِ فَهَدانا اللّهُ، وَكُنّا عَبْدَينِ فَأعْتَقَنا اللّهُ، وَكُنّا فَقيرَيْنِ فَأَغْنانا اللّهُ، فَإنْ تُزَوِّجونا فالحَمْدُ لِلّهِ، وَإنْ تَرُدّونا فالمُسْتَعانُ اللّهُ!".

فَأجابَهُ القَوْمُ بِفَرَحٍ وَسَعادَةٍ لِما يَعْلَمونَ مِنْ مَكانَتِهِ في الإسلامِ رَغْمَ ما يَذْكُرُهُ:" نَعَمْ وَكَرامَةً!". وَزَوَّجوهُما.

وَبَعْدَ أنْ قَضى بِلالٌ إلى جِوارِ النَّبِيِّ الأكْرَمِ ﷺ شَطْـراً طَويلاً مِنْ عُمْرِهِ، عَرَفَ فيهِ أسْعَدَ الأوقاتِ وَأهْنَأها، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَمُدُّ قَلْبَهُ وَروحَهُ في كُلِّ يَومٍ بِعِلْمٍ جَديدٍ يَضْمَنُ لَهُ بِهِ الجَنَّةَوَنَعيمَها، إلى أنْ تُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ، وَرَأى بِلالٌ المُسْلِمـونَ يَخْرُجـونَ عَنْ سَبيلِهِ وَوَصاياهُ، وَيُغْمِضونَ عُيونَهُمْ، عَنْ آخِرِ مَوْعِدٍ لَهُمْ مَعَهُ في بيعَةِ يَومِ الغَديرِ.

لَقَدِ اجْتَمَعَ المُسْلِمونَ في سَقيفَةِ بَني ساعِدَةَ،وَفيها بايَعوا أبا بَكْرٍ خَليفَةً، وَبِذلكَ خالَفوا لأوَّلِ مَرَّةٍ أمْرَ النَّبِيِّ ﷺ في أهَمِّ شَأنٍ مِنْ شُؤونِ دَوْلَةِ المُسْلِمينَ!



أَمامَ هذا الواقِعِ تَحَـرَّكَتْ فِئَةٌ مِنَ المُسْلِميـنَ، وَوَقَفَـتْ إلى جانِبِ أَهْلِ بَيْتِ النَّبيِّ ﷺ في رَفْضِهِمْ مُبايَعَةَ أبي بَكْـرٍ، وَكـانَ بِـلالُ بْنُ رَباحٍ مِنْ بَيْنِ أولئِكَ، على الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ ما زالَ يَذْكُرُ أَنَّ لأَبي بَكْـرٍ فَضْلاً في تَحْريرِهِ مِنَ العُبودِيَّةِ يَومَ اشْتراهُ مِنْ مَوْلاهُ، وَأَعْتَقَهُ.

وَلكِنَّ هذا الأَمرَ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ أَنْ يَتَّخِذَ مَوْقِفاً عادِلاً مِنْ أَهْـلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ أَعْلَنَ عَنْ هذا المَوْقِفِ في أَوَّلِ مُناسَبَةٍ طَلَبَ فيهـا أبو بَكْرٍ مِنْهُ أَنْ يَرْفَعَ الأذانَ في عَهْدِ خِلافَتِهِ، فَقالَ لَهُ بِلالٌ: " إِنّي لا أُؤَذِّنُ لأَحَدٍ بَعْدَ رَسولِ اللّهِ ﷺ".

لَمْ يَكُنْ رَفْضُ بِلالٍ رَفْعَ الأَذانِ بِناءً على طَلَبِ أَبي بَكْرٍ هُوَالمَوْقِفَ الوَحيدَ الّذي وَقَفَهُ تَأْييداً لآلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بَلْ إنَّهُ رَفَضَ رَفْضاً قاطِعاً أَنْ يُبايِعَهُ، فَأَخَذَ عُمَرُ بِتَلابيبِهِ،وَقالَ لَهُ:" يا بِلالُ! إنَّ هذا جَزاءُ أَبي بَكْرٍ مِنْكَ؟إنَّهُ أَعْتَقَكَ، فَلا تَجيءُ تُبايِعُهُ!".

فَأَجـابَ بِـلالٌ:" إنْ كانَ أبو بَـكْرٍ أَعْتَقَني لِلّهِ، فَلْيَدَعْني لَهُ! وَإنْ كانَ أَعْتَقَني لِغَيْـرِ ذلِكَ فَها أنـذا! وَأَمّـا بيعَتُـهُ فَمـا كُنْتُ أُبايِـعُ أَحَداً لَمْ يَسْتَخْلِفْهُ رَسولُ اللّهِ، وَ إنَّ بيعَةَ ابنِ عَمِّهِ يَوْمَ الغَديرِ في أَعْناقِنا إلى يَوْمِ القِيامَةِ، فَأَيُّنا يَسْتَطيعُ أَنْ يُبايِعَ على مَوْلاهُ؟!".



هذا المَوْقِفُ الجَريءُ لِبلالٍ ابنِ رَباح كَلَّفَهُ الكَثيرَ فيما بَعْدُ، إذْ إنَّهُ أَغْضَبَ بِهِ عُمَرَ أَشَدَّ الغَضَبِ، فَقالَ لَهُ:" لا أُمَّ لَكَ! لا تُقيمُ مَعنا! ".

ولكِنَّهُ استَطاعَ أَنْ يَحتَلَّ مَكانَةً خاصَّةً بينَ السّابِقينَ إلى الإسلامِ، وَمكانَةً خاصَّةً في قَلْبِ النَّبيِّ ﷺ والإمام عليٍّ عليه السلام الّذي شَهِدَ بِهِ ذاتَ مَرَّةٍ بِقَوْلِهِ عليه السلام:" السُّبّاقُ خَمْسَةٌ: فَأَنا سابِقُ العَرَبِ، وَسَلْمانُ سابِقُ الفُرْسَ، وَصُهَيْبٌ سابِقُ الرّومَ، وَبِلالٌ سابِقُ الحَبَشَ، وَخَبّابٌ سابِقُ النَّبَطَ.".

كَما شَهِدَ بِهِ الإمامُ الصّادِقُ عليه السلام بِقَوْلِهِ:" كانَ بِلالٌ عَبْداً صالِحاً.".

وَبَعْدَ أَنْ رَفَضَ مُبايَعَةَ أبي بَكْرٍ وَإِصْرارِهِ على مَوْقِفِهِ ذاكَ، انتَقَلَ إلى الشّامِ، حَيثُ قَضى ما بَقِيَ مِنْ حياتِهِ هُناكَ، إلى أَنْ فاضَتْ روحُهُ الطّاهِرَةُ بَعْدَ أنْ أُصيبَ بِداءِ الطّاعونِ، فَتُوُفِّيَ في دِمَشْقَ وَدُفِنَ في بابِ الصَّغيرِ وَعُمْرُهُ ثلاثَةٌ وَسِتّونَ عاماً. رَضِيَ اللّهُ عَنْ بِلالٍ مُؤَذِّنِ الرّسولِ ﷺ وَخازِنِهِ الأمينِ، وَالسّابِقُ إلى الإسلامِ.

